ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:10، العدد: 02(2025) ص: 182 - 197

النزعة ما بعد الكولونيالية في الخطاب الروائي الجزائري ودورها في تفكيك الخطاب الاستعماري رواية " إيزابيل" ل " سليم بتقة" أنموذجا"

The Postcolonial Tendency in Algerian Discourse and Its Role in Deconstructing Colonial Narratives: Isabelle by Salim Bakkatha as a Case Study

سهيلة علي صوشة *

المدرسة العليا للأساتذة بوسعادة (الجزائر)

alisaoucha.souheyla@ens-bousaada.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2025/08/03

تاريخ القبول: 2025/12/02

تاريخ النشر: 2025/12/21

ما بعد الكولونيالية
الخطاب المضاد
إعادة التمثيل
الخطاب الاستعماري
الذات والآخر.

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى كشف اشتغال النزعة ما بعد الكولونيالية في الرواية الجزائرية ، من خلال رواية " إيزابيل" ل " سليم بتقة" كنص يفكك الخطاب الاستعماري ويعيد تمثيله، والتأثيث لمركزية جديدة ضمن ما يعرف بالخطاب المضاد، وقد توصلت الدراسة إلى أن الرواية تنظر لمقاومة رمزية من خلال إظهار البعد الإنساني للذات الجزائرية، وإماطة اللثام عن التجاوزات الاستعمارية الثقافية والاجتماعية حيث سعت رواية ما بعد الكولونيالية إلى فضحها وتشكيل في المقابل فضاء لاستعادة الفعل، وتحرير التمثيل مؤكدة بذلك على دور الكتابة في مساءلة السلطة وإعادة تشكيل العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر.

Article info

Received 03/08/2025

Accepted 02/12/2025

Published 21/12/2025

Keywords:

✓ : *Postcolonialism*

✓ *Counter-discourse, Re-representation*

Abstract :

This article aims to explore the postcolonial tendency in the Algerian novel through Isabelle by Salim Bakkatha, as a text that deconstructs and reconfigures colonial discourse, establishing a new centrality within what is known as counter-discourse. The study concludes that the novel presents a form of symbolic resistance by highlighting the human dimension of the Algerian self and unveiling the cultural and social abuses of colonialism. The postcolonial novel seeks to expose these transgressions while creating a space for reclaiming agency and liberating representation, thereby affirming the role of writing in questioning power and reshaping the relationship between the colonizer and the colonized.

* علي صوشة سهيلة

✓ *Colonial Discourse* ✓ *Self and Other*	

1. مقدمة

كان من تداعيات الاستعمار على الشعوب المستعمَرة خلق تشوه عميق في الذاكرة الثقافية للشعوب، من خلال اشتغاله على البنية الرمزية والتمثيلية للذات المستعمَرة بخلق صورة مشوهة مشروخة في الخطاب الكولونيالي سواء على مستوى الأدب أو التعليم ... الخ وهذا ما ولد ما يعرف ب ما بعد الكولونيالية أو الخطاب المضاد كنوع من رد فعل ناتج عن الشعوب المستعمَرة التي سعت إلى إعادة الاشتغال على تمثيل المركز والهامش والذات والآخر من جهة وتفكيك الخطاب الاستعماري ومساءلته من جهة أخرى.

يعد الأدب الجزائري من بين الخطابات التي نشأت وترعرعت في مركز التجربة الاستعمارية، فإنه يمثل مادة دسمة غنية بمختلف التشابكات التاريخية والتداخل الرمزي سواء كان ذلك قبل الاستقلال أم بعده، مما يعطي القدرة على مقاربته من منظور ما بعد الكولونيالي كسبيل لفهم الطرق التي أثثها الخطاب المضاد في إعادة إنتاج الذات، في ضوء تمثلات الآخر وهو الأمر الذي اشتغل عليه الروائي " سليم بتقة" في روايته " إيزابيل" التي عدت نصا ما بعد كولونيالي يعيد صياغة المفاهيم، والاشتغال على المركز من خلال رحالة أوروبية، ومن هذا الطرح يمكننا طرح إشكالية تتوافق والبحث عن الآلية التي اشتغل عليها الخطاب المضاد في إعادة بلورة المفاهيم والتمثيل من خلال المدونة المدروسة فنقول: كيف تنخرط رواية إيزابيل لسليم بتقة في مشروع ما بعد الكولونيالي؟ وماهي آليات تفكيك الخطاب الاستعماري في هذه الرواية إذا اعتبرناها نصا مضاد لما بعد الكولونيالية؟

في ضوء هذه الإشكالية فإننا نصوغ بعض الفرضيات كنوع من الانطلاق فنقول:

–رواية إيزابيل لسليم بتقة تندرج ضمن ما يعرف بأدب ما بعد الكولونيالية من خلال اشتغالها على سرد مضاد يعيد تمثيل خطاب المستعمر.

– تعتمد الرواية على جملة من الأساليب والأدوات كالمكان والعادات والدين للتأثيث لهوية جزائرية محضة لم تقدر الممارسات الاستعمارية من اضطهادها والتخلص منها.

– تحول إيزابيل من شخصية كولونيالية / نموذج استعماري، إلى شخصية هجينة انقلب على تمثيل الآخر، وهو اشتغال جديد للروائي من خلال جعل شخصية استعمارية هي من تعيد التمثيل ومركزية الوجود.

أما عن الأهداف التي يسعى لها هذا البحث فهي: –توضيح مفاهيم ما بعد الكولونيالية، وطريقة الاشتغال عليها في الخطاب السردي.

–النظر إلى موقع الأدب الجزائري ضمن هذا الاتجاه، ومحاولة كشف طرق اشتغاله على إنتاج نص مضاد ما بعد الكولونيالي.

–الخوض في رواية " إيزابيل" لسليم بتقة" للوقوف على تمظهرات الخطاب المضاد وآلية تمثيله.

–إبراز دور الأدب في تفكيك الخطاب الاستعماري ومقاومته عبر التمثيل وإعادة السرد.

ولتحقيق هذه الأهداف اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي لفهم العلاقة بين الأدب والهوية في إطار الخطاب الاستعماري، وكذا تحليل المكونات السردية والرمزية للخطاب المضاد.

2. ما بعد الكولونيالية: من الجذور النظرية إلى تجلياتها في الأدب المقاوم.

إن الحديث عن الاستعمار هو الحديث عن غزو ثقافي ومعرفي أكبر من اعتباره غزوا عسكريا، يسعى إلى سلب وعي الدول المستعمرة وإبقائها وفق وتيرة واحدة من النمطية والهيمنة، وإعادة إنتاج التبعية لها ثم ما لبثت تظهر للعلن نزعات فكرية وثقافية تسعى إلى إعادة النظر في العديد من المقومات كالهوية والتاريخ والخطاب للدول المستعمرة ومحاولة إماطة اللثام عن الانتهاكات الثقافية خاصة كرد فعل مضاد في نهاية الحقبة الكولونيالية.

ظهر فكر ما بعد الكولونيالية كرد فعل سياسي ليذهب إلى أبعد من ذلك حيث أصبح نظرية نقدية شاملة تقوض أسس الخطاب الاستعماري وتكشف آلياته الرمزية والثقافية، وإعادة الاعتبار للهويات الممزقة، وكذا تصوير المعاناة التي خلفها الاستعمار على مستوى الوجود، والتمثيل والمعرفة من خلال الاشتغال على الفعل الكتابي الروائي الذي عد من أهم الفضاءات التي أثثت على هذا التفكيك الرمزي، حيث تظهر الذات المستعمرة وهي تستعيد وجودها من خلال بناء سرديتها الخاصة.

1.2.-تعريف ما بعد الكولونيالية:

يشير مصطلح ما بعد الكولونيالية إلى مؤسسة الخطابات والنظريات المبلورة للفهم الجديد من قبل الدول المستعمرة التي كانت تحت السيطرة الغربية، وقد كانت عبارة عن رد فعل مناهض للتجربة الاستعمارية خاصة في آسيا وأفريقيا حيث " كان الغربي يرى في الشرق القريب مكانا لتحقيق الكولونيالية" (هفنش، 2006، ص 245) من خلال جعل الشرق مكانا وظيفيا يسقط عليه الغرب رغباته، وأحلامه الإمبراطورية، وأوهام التفوق الحضاري ويتأتى ذلك بإعادة تدوير الشرف وفق حاجة الغربي التوسعية والهيمنة، فحضور الشرق بوصفه الآخر في الفعل الغربي هو بمثابة حجر الأساس الذي لا يكتمل بناء الغربي إلا عبر إخضاعه فالفكر الكولونيالي " بطبيعة الحال فكر مقارن يقوم على وجود قطبين هما المستعْمِر والمستعْمَر" (الخربطولي، 2007، ص40) كثنائية تقابلية تشكل أساس الخطاب من المستعمْر/ المستعمَر/ الغرب/ الشرق، التحضر/ الهمجية والتي تهدف إلى تثبيت علاقات الهيمنة والتراتبية ضمن سياق معرفي وثقافي يعطي للمستعْمِر أحقية احتكار حتى لغة وتاريخ وهوية المستعمَر، فالاستعمار " لم يكن مجرد احتلال عسكري أو توسع جغرافي بل كان منظومة معرفية وثقافية مكتملة، سعت إلى إحكام السيطرة على الشرق من خلال إنتاج صور وتمثيلات فكرية تخضعه رمزيا قبل أن تخضعه ماديا، فقد اشتغل المستعمر على تشكيل الشرق في المخيلة الغربية بوصفه كيانا قابلا للتملك والترويض، مستندا في ذلك إلى خطاب معرفي يشرع هيمنته" (سعيد، 1995، ص 40) ومنه فالكولونيالية قد أخذت منحى ثقافي ومعرفي عميق جدا.

إنّ ظهور " الآخر" في نظرية المقارنة هذه إنّما إعادة هيكلة وخلق جديد لمفهوم الشرق الوهمي الذي يوجد في المخيال الغربي الاستعماري، وتفكيك هذه المقارنة هو ما يشتغل عليه الخطاب ما بعد الكولونيالي من خلال استرجاع سلطة الذات، والتاريخ، والوجود.

لا ترتبط ما بعد الكولونيالية بفترة زمنية فقط بل تتعداها لتصبح منظومة فكرية ونقدية تعمل على إعادة صياغة مفهوم الهوية، وتصحيح التاريخ، وبناء ثقافة خاصة بالبلدان المستعمَرة، وإعادة تمثيل الحقائق من ذات المنظور، إنه ببساطة خطاب مقاوم يسعى إلى تفكيك الأنظمة والأفكار، والخطاب المزور التي اشتغل عليها الاستعمار وإعادة بناء الوعي المشوه، وتصحيح المسار، وفضح الخطابات الاستعمارية المبطنة في الوثيقة الأدبية، وكذا تفكيك مركزية الغرب وشعاراته الزائفة عن الحضارة والإنسانية عبر خطاب يُعيد كتابة العالم بزاوية مختلفة.

2.2. السياق التاريخي لنشأة الفكر ما بعد الكولونيالي.

نشأ الفكر ما بعد الكولونيالي نتيجة التحولات الكبرى التي عرفها العالم خلال القرن العشرين، وكذا تشكل لحظة التغير والوعي، إذ تصبح الكتابة نفسها شاهدة على التحول ووسيلة لتمثيلها وفهمه، كحركات التحرر إذ تتحرك بدافع من القلق الوجودي والرغبة في التقدم المستمر فهي كتابة لا ترضى بالسكون بل تمثل سيرورة ديناميكية تبحث عن أفق جديد، وتطرح أسئلة الذات والهوية والمعنى ما يجعل منها أداة نقدية ومقلقة في آن واحد وقد ساهمت عدة عوامل تاريخية وسياسية وفكرية في تبلور هذا الخطاب خاصة تلك

المتعلقة بتفكك الامبراطوريات الكولونيالية، وظهور دول حديثة العهد بالاستقلال بسبب فقدان بعض الدول الاستعمارية هيمنتها تدريجيا لأسباب عسكرية، واقتصاديةوهذا ما أتاح الفرصة للدول المستعمرة أن تعيد التفكير في بعض السياسيات كالهوية والانتماء واللغة فما بعد الكولونيالية كرد فعل عن الهيمنة المستعمرة الممتدة حتى بعد الاستقلال بشكل رمزي وثقافي، فسرعان ما ظهرت النخب المثقفة لهذه البلدان للتعبير عن وعي وإدراك جديد لإرث الاستعمار ك " فرانز فانون الذي كتب عن الاغتراب النفسي واللغوي للمستعمر في كتابه معذبو الأرض، بشرة سوداء أقنعة بيضاء الذي يقول فيه (حين يفرض المستعمر لغته، فهو لا يفرض وسيلة تواصل، بل يفرض رؤية العالم)، وإيمي سيزير التي أعطت مفهوما مغايرا للزنج لإعادة الاعتبار للهوية الافريقية في " خطاب حول الاستعمار" (الاستعمار يهين الإنسان ليس فقط في وجوده المادي بل في كيانه الرمزي واللغوي والثقافي)، ومالك بن أنس الذي أثث لنتائج الاستعمار التي زرعت قابلية التعود على الاستعمار وقبوله في كتابه " شروط النهضة" (إن مشكلتنا ليست في الاستعمار بحد ذاته، بل في القابلية للاستعمار) لتكون هذه الأعمال لبنة أساسية في تأسيس الخطاب ما بعد الكولونيالي" (قادري، 2002، ص77) ليتم الاشتغال عليها بعد ذلك كنظرية نقدية قائمة بذاتها بداية من 1978 نتيجة تراكمات نضالية ورؤى سياسية كانت مخاض الاستعمار ونمت في ثوب تحرري وتجذرت كنظرية في الحقل الأكاديمي ولا زالت مجالا حيويا يساعد على فهم العلاقات الثقافية والقوى الرمزية التي تنتجها العولمة.

3.3. المفاهيم الأساسية لما بعد الكولونيالية.

ينطوي الفكر ما بعد الكولونيالي على مفاهيم نقدية متداخلة تسعى إلى تفكيك ترسبات الاستعمار المعرفية والتمثيلية، والرمزية التي تعمل على شرح، وتجسيد الخطاب والتي تمثل ركيزته وبنيته النظرية. تعود هذه المفاهيم إلى خبرات " ادوارد سعيد، هومي بابا غاياتري سبيفاك وغيرهم، فقد حملوا هذه المفاهيم دلالات إدراك ضرورة تغيير بعض المسميات واستعادة الذات/ الوجود، وإعادة تشكيل الهوية وصياغة التاريخ من جديد بمنظور الدول المستعمَرة، من أهم المفاهيم نجد:

أ–التمثيل:ويقصد به أن الغرب لم يكتفي بالهيمنة على الدول بالمعدات العسكرية بل اشتغل على فعل خطابي يؤثث بنيته السردية على تضليل الحقيقة، وتبني صور مشوهة عن الشرق فالتمثيل في هذا السياق لا يعتمد على نقل الواقع بل يتعداه إلى إعادة بلورته وتشكيله على حسب الرؤيا السلطوية للمستعمر ليتحول بذلك الآخر إلى شخصية مهمشة،تابعة تخدم سردية المستعمِر.

الحديث هنا عن الخطاب هو حديث عن الرواية كونها هي " أكثر الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة زمانيا وإن نشوئها هو الأكثر قابلية للتاريخ، وحدوثها هو الأكثر غربية، ونسقها المعياري للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بينة، ولقد حضنت الرواية والإمبرالية أحدهما الآخر إلى درجة عالية يستحيل معها... قراءة أحدهما دون التعامل بطريقة ما مع الآخر" (سعيد، 2014، ص 139.) فالرواية من حيث بنيتها تمثل أداة من أدوات السلطة الثقافية، كما أنها الشكل الأدبي الذي مشى بالتوازي مع تطور الاستعمار الأوروبي فترجم تطلعاته، وعمل على إعطاء تبريرا لممارساته الثقافية والعسكرية ولذلك لا يمكن قراءة الروايات الكلاسيكية كروايات " جين أوستن بمعزل عن سياقها الامبريالي لأنها ببساطة هناك علاقة متبادلة على حسب قول " ادوارد سعيد" حتى بدا من المستحيل فصل الخطاب السردي/ الرواية عن الخطاب الاستعماري، فالرواية قد كان لها دور بارز في تصدير تلك التمثيلات التي أعطت للاستعمار الحصانة بأن تكون مشروعا ثقافيا مبررا لدى الشعوب الغربية التي صورت الشرق على أنه بناء تخييلي يسهم في إنتاج الهيمنة، فالاستشراق " ليس فقط مجموعة من المعارف عن الشرق بل هو أسلوب غربي للهيمنة عليه، وإعادة تشكيله والسيطرة عليه" (سعيد، 1995، ص 11) ومن هذه الصياغة تكمن أهمية الفكر ما بعد الكولونيالي في أن يعيد قراءة هذه النصوص كجزء من البنية الرمزية للسلطة الاستعمارية وفضح هذه التمثيلات وكشف طابعها الأيديولوجي.

ب–الآخرية / الآخر:وهو المقابل أو الشرق وهو مفهوم يحيل إلى التمثيل الذي يبنى عليه النظرة الاستعمارية من تقييم عرقي وثقافي، وبوصفه كل ما يحمل نقيضا للذات الغربية، يشتغل هذا المفهوم على ثنائيات ضدية ك نحن/ هم، الغرب/ الشرق، المتحضر/ البدائي

يساهم هذا التصنيف في ترسيخ تراتبية ثقافية عنصرية تبرر السيطرة وتبقي الآخر على الهامش من خلال إخراجه من دائرة الفعل والتمثيل، فالغرب " لا يبني هويته استنادا إلى ذاته بل من خلال نفي الآخر وتمثيله بضد كنعته بالتخلف، والغموض "(سعيد، 1995، ص 47.) كنوع من الاقصاء، والنفي، والتهميش وهنا يكمن دور خطاب ما بعد الكولونيالي في تغيير هذه العلاقة، وإقامة صرح جديد يعطي للآخر أحقية الفعل والتمثيل لذاته ولكيانه كوجود متفق عليه وثابت.

ج–التهجين: يمثل هذا المفهوم من المصطلحات الأكثر تشابكا وتعقيدا، وقد برز بشكل خاص مع " هومي ك بابا" في كتابه " مواقع الثقافة" يحيل إلى معنى تداخل وتفاعل ثقافي غير متكافئ بين قطبين المستعمِر والمستعمَر وذلك لعدم توافق ثقافتهما مما يؤدي إلى نشوء عامل ثالث هجين بين الثقافتين لا ينتمي لأي من الطرفين، غير أن هذا التهجين في الفكر الكولونيالي أو الاستعماري يشتغل عليه من باب أنه " هوية نقية" تابعة لهذا الفكر وهو الأمر الذي عانده " هومي بابا" من خلال تأكيده أن الهويات تُنتج و يُعاد تشكيلها باستمرار داخل فضاء ثالث ليس غربيا بحتا ولا شرقيا خالصا فالتهجين " لا يكشف نسخة مطابقة للثقافة الاستعمارية بل يكشف تداخلا متناقضا يجعل المستعمر يهز البنية الثقافية من داخلها لا بتكرارها " (ك بابا، 2012، ص 125) حتى يتم إعادة بناء الذات وإعطاء مفهوم جديد لها يخرج من الصراع بين المستعمِر والمستعمَر.

د–التابع: صاغ هذا المفهوم " أنطونيو غرامشي" و هو يشير إلى الفئات الاجتماعية والسياسية المهمشة داخل نظام المهيمنة، حيث استخدم للإشارة إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا التي ليس لها القدرة على أن تكون فاعلة في تشكيل الخطاب، ثم ما لبث أن يتطور هذا المفهوم بعد الكولونيالية على يد " غاياتري سبيفاك" والتي نحت به منحى جديدا يشير إلى الفئة المهمشة للمنظمة المستعمَرة لا سيما النساء والفلاحين اللذين ليس لهم القدرة على تمثيل أنفسهم ووضع بصمتهم في فعل الخطاب بل يستندون إلى ما دونهم لهذا التمثيل وهذا ما جعلهم ضمن دائرة التهميش والتغييب " المشكلة لا تكمن في صمت التابع بل في أن صوته غالبا ما يختزل ضمن خطابات النخبة التي تتحدث باسمه دون إنصات له، مما يجعل حضوره مجرد أداة تخدم بنى الهيمنة " (سبيفاك، 2010، ص 84.) لذلك فقد كان هدف أدب ما بعد الكولونيالية كسر هذا الاستعمال من خلال منح التابع أحقية الفعل داخل المتن السردي، ثم إعادة كتابة التاريخ من منظور هذا التابع.

هـ–الخطاب: وهو نظام لإنتاج المعرفة من خلال " الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمِرا وما يقع خارج الغرب بوصفه مستعمَرا وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل النصوص الأدبية وغيرها للكشف عن استراتجياتها الخطابية"(الرويلي، دت، ص 33)، ويجعل من الممكن " تتبع الصلات بين الظاهر والخفي، والمهيمن والمهمش، والأفكار والمؤسسات إنه يسمح لنا برؤية كيفية عمل السلطة من خلال اللغة والأدب والثقافة" (لومبا، 2007، ص 30.) لتحدد ما هو ممكن قوله، وما يجب تركه فهو " لا يكتفي بعكس الواقع كما هو، بل يسهم في تشكيله، وصياغته، حيث يقرر ما يقال وما يمنع التفكير فيه" (فوكو، 2007، ص 42.) من خلال إعادة المعرفة من الأسفل في الفكر ما بعد الكولونيالي.

تشكل هذه المفاهيم القاعدة الأساسية للفكر ما بعد الكولونيالي من خلال أولاشرح طريقة اشتغال الهيمنة الكولونيالية في تمثيل الآخر، واستغلال التاريخ وتشويهه، ثم كيفية استعادة الذات والوجود وإعادة تمثيلها من الداخل ثانيا.

3.الأدب الجزائري في سياق ما بعد الكولونيالية من مقاومة الاحتلال إلى تفكيك خطابه.

إن الحديث عن الاستعمار الفرنسي للجزائر هو الحديث عن حالة مخالفة عن غيرها من التجارب التي تشتغل عليها السياقات ما بعد الكولونيالية نتيجة عنفه وعمقه، فهو تعدى أن يكون استعمارا إداريا أو سياسيا إلى العمل على محو الهوية الثقافية، واللغوية، والدينية وكل ماله علاقة بالوجود والهوية للشعب الجزائري عبر ممارسات الإدماج والفرنسة والمحو الرمزي والجغرافي من خلال اعتبار الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا، ظل الأمر هكذا عقدا من الزمن ليتغير الأمر مع حدوث ثورة نوفمبر وما عقبها من مقاومة ثم استقلال ليشتغل

الأدب في محاذات للتطورات السياسية ويتحول بدوره إلى أداة فاعلة في استعادة السيادة السردية لينتج بذلك رواية جزائرية تمثل نموذجا حيويا لما بعد الكولونيالية حيث تمارس الكتابة بوصفها تفكيكا للخطاب الاستعماري، ومساءلة الهوية لما بعد الاستقلال.

1.3.مراحل الأدب الجزائري في ضوء ما بعد الكولونيالية:

أ–أدب الذاكرة:مع حصول الجزائر على استقلالها كان لابد لهذا الحدث أن يكون له تأثيرا عن الأدب الجزائري الذي دخل مرحلة جديدة عملت على الاشتغال على إعادة النظر لبعض المفاهيم من خلال ربطها بالواقع الجديد الذي منحها بعدا مغايرا في ما بعد الاستعمار كالهوية والانتماء، فقد سعى الخطاب إلى تسليط الضوء على الخيبات التي أعقبت الاستقلال، وازدواجية الهوية وصراعات الداخل السياسية حيث " عبر الروائيون الجزائريون عن واقعهم بكل تفاصيله وتعقيداته سواء بالعودة إلى الثورة التحريرية أو بالحديث عن التغيرات التي طرأت على المجتمع الجزائري بعد الاستقلال"(طيبون، 2015-2016، ص 34.) وهو ما يعكس البعد التمثيلي لصراع الداخل الجزائري ضد امتدادات الاستعمار بعد الاستقلال خاصة تلك التي تتعلق بالهوية إذ " أن الهوية التي تشكلت بعد الاستعمار لم تبنى في صورة نهائية بل ظلت تتسم بالتوتر وتشكل مستمر تتجاذبه أطراف عدة، فهي تارة تأخذ وجودها من ماضٍ مثقل بالوطنية والبطولة، وتارة من حاضر يتأرجح بين التمسك بالأصالة وبين اندفاع نحو حداثة مشروطة بإرث المستعمِر" (بورايو، 2004، ص 133.) لتغدو بذلك الهوية منطقة صراع دائم يتم فيها التفاوض على عدة جبهات من ماضي /حاضر، وذات/آخر، ولغة أصلية/ ولغة مستعمِر فاشتغل الأدب ما بعد الكولونيالي على نقل" أثر الوضع الاقتصادي والاجتماعي في فترة ومكان معينين على السلوك الإنساني" (الخطيب، 1981، ص 33.).

ب–أدب ما بعد الكولونيالية المتأخرة: مساءلة الآخر: بدأ التأثيث لهذه المرحلة من 1988 حيث شهدت تحولات عميقة كانت نتيجة الأزمات السياسية، والاجتماعية، وأخذ الأدب على عاتقه محاولة الغوص في العمق من خلال تفكيك الخطابات الكبرى بما فيها الخطاب الثوري في حد ذاته، ترتب على هذا الأمر ظهور فعل كتابي اشتغل على الذاكرة الجمعية والفردية على حد سواء" وإن كانت الثورة في آخر الأمر إنما هي إطار زماني أو اجتماعي يعالج الكاتب من خلاله موقفا إيديولوجيا كما فعل الطاهر وطار في روايته " اللآز" أو يبحث شؤون الفكر، والحياة، والموت، والخلود، والحب كما فعل محمد عرعار في روايته" الطموح"، أو شؤون الاستعمار والحضارات والحب كما فعل ذلك عبد المالك مرتاض في روايته" نار ونور" وبعضها ك"نهاية الأمس"، و" طيور في الظهيرة" و" مالا تذروه الرياح" تعالج آثار الثورة الاجتماعية والنفسية التي عانى منها الشعب الجزائري بعامة، وطبقاته المحرومة بخاصة" (مصايف، 1983، ص 26.)وكذا إعادة النظر إلى ما وراء علاقة الجزائري بفرنسا من حيث أنها مصدر لدمار سابق، ومركز ثقافي حاضر حيث " لم تعد فرنسا في الوعي الجزائري مجرد استعمار سابق يمكن تركه في الماضي بل أصبحت هاجسا ثقافيا معقدا يحمل في إرثه توترا عاطفيا ممزقا يتأرجح بين القبول والرفض والانجذاب والتشويه، وبين الرغبة في الترك والخوف من التكرار"(الأعرج، 2010، ص 59.) ففرنسا لم تعد تتمركز في المخيال الجزائري على أنها تاريخ استعماري وحسب بل تحولت إلى جزء من الذات في اللغة وفي الأدب بل وحتى في الحلم الجماعي، ليشتغل الفعل السردي على تلك المنطقة الرمادية التي تقف على الإرث والرفض والذاكرة والخوف، لأنه يكتب جزءا من الذات التي استعمرت من الداخل ولعل هذا ما جعلها عالقة في الخطاب الجزائري كونها توتر دائم بين التحرر من قيدها أو التعايش معها كعنصر موجود في تشكيل الهوية.

4.ما بعد الكولونيالية في رواية إيزابيل لسليم بتقة من ممارسات المستعمِر إلى الخطاب المضاد.

تتحرك رواية " ايزابيل" ل " سليم بتقة" داخل مجال مابعد الكولونيالية، لا من خلال الاستعادة الخطابية المباشرة لحقبة الاستعمار الفرنسي بل عبر تفكيك ممارسات المستعمِر الرمزية التي ما تزال مستمرة في بنية الوعي، واللغة، والعاطفة وتأتي هذه الممارسات

من داخل الحكاية، حيث يُعاد تمثيل العلاقة بين الذات الجزائرية والآخر الفرنسي على نحو رمزي لا يخلو من التوتر والاختلال والإدانة الخفية وفي المقابل تبنى الرواية على هذه الجبهة نصا مضادا يشتغل على فضح المستعمِر، وتفكيك سلطته الرمزية من خلال النظر في العلاقات العاطفية واللغوية والوجودية التي مثلتها " إيزابيل" كونها البطاقة التي اشتغل عليها " سليم بتقة" لبناء النص والنص المضاد وكأنه بذلك يسعى إلى أن تكون شخصية منهم هي الشاهدة على فضح جملة التناقضات، والانتهاكات الممارسة، ويمكننا تأسيس ذلك على :

1.4. ممارسات المستعمر في الرواية / الخطاب الكولونيالي:يشتغل ذلك من خلال:

أ–الآخر المستعمِر بوصفه مركزا رمزيا: تشتغل أولى ممارسات المستعمِر في تشكيل المركز من خلال جعل نفسها هي الوصية على الجزائر واعتبارها جزءا منها توكل لها مهمة العبث فيها أو بمصطلح استعماري الوصي الحضاري على شعب متخلف من خلال جملة من الممارسات المادية والرمزية التي تهدف إلى إعطاء نظرة للأهالي والعالم بأن وجود فرنسا ليس احتلالا بل رسالة تمدن وتمثل ذلك من مستوى التحول العمراني من خلال العمل على إعادة تشكيل الفضاء الجزائري وفق النموذج الأوروبي " الجزائر مدينة أوروبية" (بتقة، 2024، ص 60) يعري هذا القول رؤيا استعمارية استعلائية من خلال فرض تصور حضاري ينزع عنها خصوصيتها ويعيد تشكيلها وفق نموذج كولونيالي يقدم الجزائر مدينة بلا ماضي وبالتالي فهو ليس توصيفا جغرافيا بريئا بل ينطوي على عنف رمزي لتغريب المدينة الجزائرية " منذ أن خطوت شوارع العاصمة أول مرة كنت أتخيلها مدينة أسطورية شرقية ساحرة، شيئا ما مثل حلب والقسطنطينية، وبغداد.. غير أني وجدتها مدينة أوروبية بامتياز تذكرني بباريس، وبمرسيليا ونيس.. مقاهي ومطاعم، وشوارع واسعة، وعمارات من أربعة طوابق، وساحة صغيرة، حيث تعزف الموسيقى الكلاسيكية .. هناك أوروبيون يجلسون على كراسي يحتسون البيرة، وهناك سيدات وفتيات جميلات، وبعض الجنود.. " (بتقة، 2024، ص 66–67)إنه تحول صادم ضرب وعي ايزابيل عرض الحائط حيث تنتقل من تصور استشراقي للجزائر كمدينة شرقية تشبه بغداد وغيرها إلى إدراكها أنها" مدينة أوروبية بامتياز" تشبه باريس ومارسيليا هذا التناقض بين المتخيل والواقع لا يعكس خيبة ايزابيل وحسب بل يتعداها إلى أبلغ من ذلك بل يجسد بشكل عميق فكرة التوسع الفرنسي، والفراغ الرمزي للهوية المحلية أثثها الخطاب السردي لسليم بتقة من أجل إظهار كيف استبدلت ذاكرة المدن الإسلامية الساحرة بجمالية استعمارية سطحية جاءت على شكل إدانة ناعمة في طمس الأصالة فجملة " مدينة أوروبية" لا تخرج من إطار السخرية والتذمر.

وبموازاة هذا التغيير المادي للحضارة العمرانية، عملت فرنسا على إضفاء طابع أبوي على سياستها اتجاه الشعب حيث قدمت بعض المساعدات كالمعونة " –لم أرى الجانب الحسن الذي ظلت تحدثني عنه ونحن في طريقنا إلى هنا.. جنايكم

–نحن لا نتوقف على تقديم المساعدات لسكان هذه القرى في البلديات المختلطة " (بتقة، 2024، ص 244.)وهذا ما يعكس ما يسمى بالخطاب الإحساني الاستعماري، حيث تصور الهيمنة على أنها خدمة ومساعدة، وبهذا يعاد تأطير الوجود الاستعماري بوصفه جهدا نبيلا لإنقاذ الشعوب المتخلفة، وتجميل صورته أمام العالم.

ب–اغتراب الذات الجزائرية: تعيش الذات الجزائرية في رواية " ايزابيل" حالة من الاغتراب العميق في وطنها إذ تتحول في الخطاب السردي من فاعل إلى مفعول به، ومن صاحب أرض إلى مجرد كائن هامشي، فلا حضور حقيقي لصوته في المدينة بل ولا تمثيل لروحه في مؤسساتها بل يوضع تحت مهجر التهديد والتغييب " أوقفتني سيدتان فرنسيتان مترنحتان ... أمرتني أحداهما أن أوصلهما للبيت ... كانت ذات اللسان الطويل أثناء الطريق تشتم وتلعن كلما اهتزت عجلات العربة وانخفضت..على مهلك يا حمار... ولما طلبت الأجرة راحتا تتفوهان بكلمات لم أفهمها وتضحكان... ولما دخلت معهما في خصام لمحنا شرطيان مستفسرين أخبرته إحداهما بأنّي استغلهما... رفع أحدهما العصا في وجهي وأمرني بالمغادرة" (بتقة، 2024، ص 55.)إنّه اغتراب للذات حيث فقدت حقوقها في بلدها، تتحول العدالة في ظل النظام الاستعماري إلى أداة لقمع الجزائري وإنصاف الأوروبي فتتحول بذلك إلى سلاح طبقي عنصري كولونيالي، هذه الممارسة التي جعلته يبحث عن فضاء خارج هذه التعسفات يستطيع أن " يكون فيها محبوبا كما في القصص والحكايات. كان يغمض

عينيه، ثم يطلق عنان خياله، فيسبح مع ذاته... كان يظن أن وجه القمر سينشق كما يحدث في الحكايات القديمة... سيأخذها بعيدا إلى حيث سيكون العشب خصبا، والأشجار محملة بالثمار، إلى حيث يتدفق الذهب إلى قاع الجداول... سوف تمر الحياة كالمداعبة، ربما سيتمكنان من مغادرة بسكرة وستطأ قدماها شواطئ أوروبا وستخفق الأمواج ساقيهما المرتجفتين... لقد وددت وبكل كياني أن يصبح الحلم حقيقة" (بتقة، 2024، ص 58-59) حلم الذات المهمشة التي تبحث عن موطئ قدم في زاوية من هذا العالم حيث تكون فيه " محبوبة كما في القصص والحكايات" إنه توق إلى عالم موازي عالم الخيال أين يجد كل ما يهواه القلب وتستلذه العين كنوع من المقاومة الناعمة للواقع القاسي، كما أن الرغبة في الذهاب لأوروبا إنما هو فعل رد يشتغل على كسر القيود وتحقيق الذات خارج منظومة التهميش، أين تعيش الذات اغترابا داخليا ضمن دائرة الاستعمار" – انتبهي لنفسك فالسحليات قد تفاجئك من أي مكان، لقد قبضنا على اثنين منهما كما ترين..

بدا أنه كان يستمتع وهو يصفهما بالسحليات، كان يفعل ذلك بنبرة عنصرية مقيتة، وهو على يقين من أنه ينتمي إلى جنس بشري...

لقد أعطت الجدران العارية الرطبة، والصمت، والضوء الخافت انطباعا بأن هؤلاء الجنود داخل هذا الحصن قد نسوا جميعا أن في هذه المنطقة من العالم هناك بشر مثلهم تماما لهم أسماء وأسر وتاريخ، وعادات، ونمط معيشي، وأحلام وضحكات، وبيوت مبهجة مضيافة لكن الدعاية الاستعمارية أرادت أن يظل العربي مسحوقا، ومطرودا" (بتقة، 2024، ص 205.) فالجزائري كائن غير موجود، مغيب، صوته غير مسموع.

ج–فضح الممارسات الكلونيالية من الداخل: إن الرواية لا تقدم نقدا سياسيا مباشرا للاستعمار بل تعتمد على نسق أكثر عمقا وتمثيلا للكولونيالية من خلال تفكيك البنى الرمزية كالتفوق الثقافي الكولونيالي، والتمدن والسلطة المعرفية وغيرها فإيزابيل تظهر هنا كرمز مزدوج الدلالة فهي تارة تفضح جملة الممارسات الاستعمارية وتارة أخرى تظهر الجزائري/ العربي على الوجه الإنساني الصحيح الذي عمل الاستعمار على تشويهه وكأن " سليم بتقة" يبحث عن شاهد منهم ليروي حقيقة قصتهم الاستعمارية ويصحح التاريخ.

تظهر إيزابيل في لحظات متقدمة من الفعل الكتابي كصوت نقدي فرنسي من الداخل يسائل تاريخ بلاده الاستعماري، ويتفقد عن كثب الممارسات اللاإنسانية التي تعدت الأرض إلى أهل الأرض نحو الكرامة، واللغة، والهوية، والإنسانية، وكان جلُ ما يهمها وتفضله " الدعوات إلى التحرر، وشفاء الجسد والعقل، برفض الامتثال والخضوع لقيود حياة الغرب الزائف" (بتقة، 2024، ص 68.) وهنا تتجلى تناقضات الذات الكولونيالية كونها لا تتوانى عن التعبير عن رغبتها في التحرر من قيود الغرب الزائف الذي تنتمي له جغرافيا كمبدأ حتمي وهذا ما يجعلها أقرب إلى التيار الإنساني المتجاوز للثنائية الاستعمارية، وهو توصيف نعتي لأزمة الإنسان الغربي الذي وإن امتلك التكنولوجيا إلا أنه خسر المعنى لذا تسعى إيزابيل إلى استبطان رؤية تحررية تبحث فيها عن شفاء داخلي يبدأ من فضح سياسة الاستعمار " أما الأطفال فكانوا يهربون مني طوال الوقت، ويغلقون الأبواب في خوف، عرفت من خذير فيما بعد أن الأهالي هنا وبسبب ما عانوا من عنف المستعمر، جعلوا النساء والأطفال في حالة من الرعب المقدس من " الرومي" " (بتقة، 2024، ص 126-127) تجاوز الاستعمار الجغرافيا ليمتد إلى النسيج العاطفي والجمعي للمجتمع الجزائري لتتحول نظرة الأبرياء منهم كالأطفال إلى الآخر الاستعماري نظرة خوف وتوجس غريزي وتراكمي ناتج عن ذاكرة جماعية محملة بالعنف لما بعد الصدمة الاستعمارية القاسية وما انجرّ عنها " في غرفة عبارة عن قفص بلا نوافذ يحتشد داخله عدد من السجناء، وتفوح منها رائحة كريهة تقلع القلب، الحرارة لا تطاق .. مع مرور الساعات، كانت ترى الحراس يعيدون المساجين وهم في حالة يرثى لها من أثر التعذيب .. يبصقون ويصرخون" (بتقة، 2024، ص 187.)، كانت ترى " الحراس يخلعون أحزمتهم ويضربون بها السجناء، ثم يأخذون الواحد تلوى الآخر، منهم من يعود وعلامات التعذيب بادية على كامل جسده، ومنهم من لا يعود" (بتقة، 2024، ص 190.)، ففضاء السجن هنا إنما هو مجال ووسيلة لتعرية

البُنى الاستعمارية العنيفة من خلال ممارسات المستعمر التي تعد تمثيلا منظما لفرض الهيمنة ومحو الكينونة الإنسانية، لتأتي الرواية لتفكيك الخطاب الفرنسي التبريري الذي يسعى إلى تغطية جرائمه من خلال " تمدين الشعوب" في ظل خيانة الصورة الإنسانية التي سعى الاستعمار إلى تجميلها " لعنت هذه البلدة وهؤلاء المعمرين والجنود المقتنعين بأنهم يعيشون في الجنة، بالنسبة لإيزابيلكانت الرغبة في تدمير الأكاذيب، وتحطيم صور الدعاية الاستعمارية تحدوها أكثر من أي وقت آخر" (بتقة، 2024، ص 233.) إنه تمرد فكري وأخلاقي على البنية الكولونيالية، فإيزابيل لا تكتفي برفض الحضور الاستعماري بل تسعى إلى تفكيك الزيف الذي يقوم عليه هذا الحضور.

تفضح الرواية عن آليات الخطاب الاستعماري التجميل والتبرير من خلال صياغة صور لا تمد للواقع بصلة، ثم تسويقا للمستعمر على أنه المنقذ لتتحول الرواية إلى سرد رمزي تشوه فيه إيزابيل صورة الدعاية الاستعمارية وتحطمها من الداخل، وهي صياغة تتماشى مع وعي ما بعد الكولونيالية خاصة فيما يتعلق بمفهوم الخطاب المضاد حيث لا يتم رفض الاستعمار من الخارج فقط أي من المستعمَر بل تقلب مفاهيمه من الداخل من وحي الثقافة الاستعمارية ذاتها من خلال لعبها دورا مزدوجا.

2.4.الخطاب المضاد بوصفه تفكيكا لهيمنة المستعمر: يمثل النص المضاد أهم آلية يشتغل عليها خطاب ما بعد الكولونيالي فعلى خلاف أنه يعمل على رفض الاستعمار وإدانته فهو إلى جانب ذلك يتداخل معه في جوف اللغة والتمثيل والمعنى،عامدا في ذلك على تفكيك الهيمنة الرمزية والمعرفية التي أسسها المستعمِر، ومن هذا الأمر يمكننا اعتبار النص المضاد إنما عملية استرداد للفعل من خلال إعادة صياغة الواقع من وجهة نظر المستعمِر كفاعل يكتب ذاته وتاريخه، فيمنح بذلك للهامش مركزا وللمغيب حضورا من خلال إعادة التمثيل.

تشتغل رواية " سليم بتقة" على إعادة إنسانية الجزائري من خلال تفكيك الصورة النمطية التي صاغها الاستعمار وسوقها للعلن من خلال إعادة ترتيب الأماكن والأولويات والعلاقة بين الذات والآخر، والوطن والمستعمر، والهوية والذات ضمن فعل سردي ما بعد كولونيالي، يظهر هذا الاشتغال من خلال:

أ- **الشخصية من تابع صامت إلى فاعل مقاوم:**صور سليم بتقة النموذج الجزائري الصلب الذي لم تهزمه قسوة الاستعمار ولا هشاشة الواقعمن خلال تعامله مع إيزابيل فمن جهة يجسد لنا ذات إنسانية لا تميز الآخر على أساس العرق أو التاريخ فتمد لها يد المساعدة، ومن جهة أخرى يشتغل على تماسك الشخصية الجزائرية العريقة بأصالتها "، كانت ملامح وجهه ذات نقاء نادر رغم صلابته الشديدة والبارزة جدا .. كان أنفه المستقيم، وشفتاه المطوقتان وبشرته السمراء... ربما ذكرتها بشخصيات ألف ليلة وليلة، كما اندهشت لزيه العربي ... القندورة الصيفية، والعمامة البيضاء التي كانت تخفي جميع شعره، وخف من جلد طبيعي بلون ذهبي" (بتقة، 2024، ص 119.) إن انبهار إيزابيل بخذير هو انبهار يتجاوز الشكل المادي ليغدو حضورا جماليا ورمزيا تتقاطع فيه النظرة الفرنسية مع مخيال الاستشراق الذي ينظر للعربي بوصفه شخصية خرافية فيها الغموض، والجاذبية، والإعجاب المحمل بالتقدير، والاحترام، أما الملابس التقليدية فهي رمزية للهوية الأصيلة التي تحافظ على تمثيلها رغم الاستعمار الكولونيالي ، فخذير هنا لم يظهر كتمثيل مهتز أمام اللاآخر الفرنسي بل هو تجسيد للذات المستقلة ذات البناء المتكامل المخالف لنظرة الكولونيالي المسوقة للعالم، فالأمر هنا تصحيح لشخصية الجزائري الحقيقية على يد شخصية تنتمي للمعسكر الآخر الذي كان يراه من باب الدونية والاشمئزاز.

ينطبق الأمر على باقي الشخصيات في طريقة اشتغالهم على المحكى التمثيلي والرمزي للتأصيل " استقبلتنا والدة خذير بابتسامة عريضة، تبدوا امرأة متعاطفة... قبل المغادرة أهدتني أم خذير المرأة الودود عرجون تمر" (بتقة، 2024، ص 126-127)إن طريقة استقبال أم خذير لإيزابيل و تودعيها هو تمثيل سردي لقيم جزائرية تتجاوز جرح الذاكرة، والممارسات الاستعمارية، فالكاتب هنا يشتغل على تنعيت وصفي من شأنه أن يعزز قيمة الخطاب،عرجون التمر لم يأتي عبثا إنما هو رمز ثقافي كثيف لمعنى الارتباط بالأرض، وبالكرم

والعطاء، والرقي في التعامل وهو ما ينطبق على باقي الأهالي " ما إن يراك أهل القرية قادما حتى يدعونك إلى الرغيف والتمر واللبن الرائب، ثم يعرضون عليك تناول القهوة معهم، ويسألونك عن أحوال المدينة، وعن وجهتك، وعن حاجتك" (بتقة، 2024، ص 206.) قد أراده الكاتب مشهدا متكاملا يفكك فكرة الهمجية، والوحوش، والتخلف التي اشتغل عليها الخطاب الاستعماري.

ب–**التمثيل الثقافي للهوية الجزائرية بين الرمزية والمقاومة في رواية إيزابيل:**يبني " سليم بتقة" هوية النص المضاد ما بعد الكولونيالي من خلال التفاصيل اليومية، والرموز الثقافية، والممارسات الحياتية وكأنه بذلك يجعل من بقاء الشخصية الجزائرية في ظل الفعل الاستعماري هوية في حد ذاتها متجذرة وقابعة في الأرض والوجود رغم كل شيء فهو وعي بأحقية البقاء والمقاومة حتى في التنفس، ومن آليات الاشتغال التي مثلها " سليم بتقة" فهي مجموعة المؤشرات السردية التي تعيد تشكيل الهوية من الداخل عبر أدوات رمزية مثل اللباس التقليدي، والمناسبات الاجتماعية، والمكان كنوع من المقاومة في نص مضاد يقابل الخطاب الكولونيالي .

–اللباس التقليدي كعلامة للمقاومة الصامتة: يمثل اللباس في الرواية فعلا سرديا يمثل الحدث ما بعد الكولونيالي في رمزية للهوية ورفضا للتماثل مع الآخر "فخذير" مثلا منحه اللباس التقليدي هالة من الوقار والانتماء الثقافي الثابت " التحقت بخذير في الخارج وقد كان يرتدي لباس الفارس، مع سترة وسروال طويل أبيض، ونعال بنية طويلة من جلد... وعلى رأسه عمامة بيضاء" (بتقة، 2024، ص 125.) فلباس الفارس هنا متشبعة الدلالة وتفيض إلى تمثيل يحيل أن الجزائري لا يمكنه أن يعيش ضحية على الدوام بل هو ذات مقاومة ومالكة لمعناها الثقافي "فخذير" نفسه الذي كان في الأمس القريب يعيش الاضطراب والتذبذب وهو نفسه اليوم يلبس شفرات رمزية (السروال الطويل، النعال الجلدية، العمامة البيضاء) للدلالة على الانتماء الاجتماعي والروحي والوجودي، ليغدو الجسد واللباس مقاومة تعلن بها الذات هويتها مقابل النموذج الاستعماري.

يذهب " سليم بتقة" في اشتغاله على معطى اللباس إلى أبعد مما هو ظاهر فارتداء " إيزابيل" اللباس العربي التقليدي " انتفضت من مكاني، ولبست الطقم اليومي بعد أن استبدلت قميصي، ببرنوس أبيض، وعمامة، وسروال أبيض طويل، وحذاء طويل من جلد الظباء... ما هذا اللباس الفاخر؟ تبدين أكثر بدوية من البدو أنفسهم برنوس مطرز، عمامة وحذاء عال" (بتقه، 2024، ص60_61)هو تشفير سردي كفعل ما بعد الكولونيالي ينقلب فيه منطق التمثيل المتعارف عليه، فالكاتب يلبسها الزي العربي ليشتغل من خلالها على توزيع العلامة بين المركز الاستعماري والهامش الجزائري، فدائما ما سعت فرنسا إلى تذويب الجزائري رمزيا وثقافيا بحيث يتماهى مع ثقافتها، لكن " سليم بتقة" يقلب المعادلة لتتقمص " إيزابيل" عناصر من الثقافة الجزائرية، فتحضر بدلالتها الرمزية، وتتحرر من مركزيتها، ومنه فيمكن للغربي أن ينخلع من مركزيته ويكون شبيها بنا من خلال التداخل والتأثير المتبادل " يقال أن الملابس تحمل ذكرى من ارتداها.. فهذه الملابس البدوية أشم فيها رائحة جغرافية الأرض والرياح، والممتد إلى مالا نهاية من الحكايات، والخرافات، والأغاني، والصور سواء قرأت عنها أو تلك التي شاهدتها." (بتقة، 2024، ص 60.) وهو تشبع واضح لإيزابيل برمزية الثقافة الجزائرية.

– المناسبات والأسماء العربية، والأكلات التقليدية كذاكرة حية: كل هذ الترميز اشتغل عليه " سليم بتقة" كتمثيل سردي يتحدث عن مجتمع جزائري خارج الخطاب الاستعماري فالسبوع "حاولت الأم أن تخفف الأمر عن خذير، وكنست المحادثة جانبا، فالليلة هي ليلة السبوع، ... رويدا رويدا راحا يخوضان فيحديث الولادة والسبوع... قطعت زوجة العطوي الحديث حين دخلت تحمل المولود... سألتها القابلة عن حالها، تربعت وأخذت منها المولود، وراحت تدلك جسده، وتضع قطرات في أذنه من زجاجتها الصغيرة وسط إعجاب الجميع بلون جلده الأحمر ... في غفلة الخالات والعمات اللواتي كن يطبخن ويعبقن الدار بالدخان، كان الأطفال يلعبون ويتشقلبون" (بتقة، 2024، 57) طقسا تقليديا محملا بالهوية الجمعية ومجالا رمزيا يعيد به الكاتب ربط الجزائري بجذوره، ومجتمعه، وتاريخه الشعبي، وإقحامه في الرواية تأكيدا على أن الذات لا تزال تكتب تاريخها وتعيشه، وتؤسس امتداها الثقافي به.

كما تعد الأسماء من الرموز الثقافية التي ذكرها " سليم بتقة" كنوع من الانتماء، وتأكيدا على حماية الذات من فعل التذويب، فالرواية لا تكاد تخلو من أسماء غربية منتشرة على طول فعلها السردي وكأنّ بذلك أراد الكاتب أن يضع "بالتوازي معها أسماء عربية ويؤكد عليها أيضا " – هل أسميت ابنك كما اتفقنا، أم تركت أم زوجتك تستبد بذلك وتعطي أولادنا أسماء غريبة؟

...

- بل أسميته على اسم من أسماء أجدادي يا أماه ...
- وماذا أسميته؟ هيا أخبرني.
- أسميته محمدا على اسم جدي محمد بن علي" (بتقة، 2024، ص 54.) إنه حرص على المحافظة على الإرث والهوية والوجود.

ثم ما يلبث الكاتب أن يخرج النص من سطوة اسم " إيزابيل" حتى يمنحها اسما عربيا " اتخذت اسما عربيا كما أخبرتني... نعم وهو اسم عربي" (بتقة، 2024، ص 61.) اتخاذ ايزابيل اسم عربي يقودنا للسؤال إن كان لحظة خضوع رمزي أم انفتاح ثقافي؟ إنّ اتخاذ اسم عربي من طرف إيزابيل إنما هو نقلا صريحا لسلطة التسمية من يد المستعمِر إلى يد المستعمَر من باب التأثير والتداخل وكنوع من تفكيك المركزية الأوروبية ونقل ثقل الوعي الكولونيالي الموجود، كما الاسم العربي من حيث كونه محملا بذاكرة ثقافية ودينية يمنح إيزابيل معنى وبعدا جديدا يشتغل على ذاتها المهزوزة التي بدأت تذوب في داخل خطاب الآخر.

عمل " سليم بتقة" على الاشتغال على كل تفصيل يستطيع من خلاله تمثيل الذاكرة في الثقافة والانتماء كطبق الكسكسي الذي يحمل في ذوقه تاريخا جماعيا، وعلاقات اجتماعية، ومشاعر دفينة من الانتماء والوجود " دخل أخو خذير الأكبر محملا بقصعة كبيرة وضعها على المائدة بعد أن سلم علي ... ملعقة أملأها وأنفخ فيها قبل أن أتناولها لسخونتها...طبق لذيذ حقا، ونكهة لم اتذوقها من قبل.

صحة وعافية.. هذه أكلة شعبية عندنا تسمى الكسكس ... كان اليوم ناجحا تماما، والوجبة كانت شهية للغاية" (بتقة، 2024، ص 129.) استحضار طبق الكسكسي في لحظة وجود إيزابيل إنما يعد فعلا سرديا مضادا ينتج دلالة أن الذاكرة لازالت تحتفظ بمدركاتها الحسية والذوقية والرمزية في طبق، وتذوق إيزابيل له هو لحظة تصادم ثقافي تدخل فيها إيزابيل مساحة الذوق المرتبط بالذكريات والهوية الجمعية، وبهذا يصبح الكسكسي ذاكرة حية، ورمزا للهوية التي لاتزال تقاوم في صمت.

3.4. الدين كملاذ للهوية : من التوجس إلى الاطمئنان : في خطاب ما بعد الكولونيالية : يمثل الدين أحد الرموز التي حاول المستعمر ضربها وتحريفها، كونها المقوم الأساسي للهوية ومركزيتها ، يظهر الدين في الرواية كملاذ وجودي ومساحة من السكينة لدى إيزابيل التي أدركت هشاشة ثقافتها أمام عمق هذه المنظومة الروحية " بعد انتهاء الصلاة، انتشرت جموع المصلين في الأرض .. جلست في إحدى زوايا المسجد، هناك إحساس جميل ينتابني وأنا هنا في حفظ الله؛ حب لا متناهي .. لا خوف، ولا خشية، فقط أخشى من تكرار خطاياي .. نعم ، هذا الذي يخيفني ... لكني سأحاول ألا أفعل ذلك وسأتوب يا الله، فوجودك بجانبي، يشعرني بأني لست وحيدة..

–هل أحببت المسجد الكبير سي محمود؟

–كل زيارة جديدة تمنحني أمانا لقلبي، وتجعلني سعيدة.." (بتقة، 2024، ص 70) تبلغ إيزابيل ذروة الشعور بالسلام الداخلي والانسجام مع العالم الجديد الذي تختبره ، فالإسلام يظهر في هذا المقطع لا كمؤسسة ولا موقف ايديولوجي بل كملاذ روحي وجد فيه قلبها سلامه وراحته فالله لم يعد غريبا بل هو كينونة حماية، وغفران وتوحد لإيزابيل.

تعتنق إيزابيل الدين الإسلامي لأنها وجدت فيه مخرجا من هشاشتها الوجودية، وحالة اللاانتماء التي كانت تعيشها، فكان الدين في إيزابيل فضاء لإعادة تمثيل ترتيب العلاقة بين الذات مع الآخر " هكذا سي محمود تريد الانضمام إلى زاويتنا المباركة؟

–سيدي الشيخ، إنه لشرف عظيم لي أن أحظى بقبول العضوية ضمن إخواني من الزاوية القادرية.

...–

–لقد اخترت طريق الإسلام.

لقد اختارت روحك طريق النقاء سي محمود، لكنها تحتاج إلى مرشد لتجد نفسها، إعطني يدك.

مددت يدي إليه، وكفّاي مفتوحتان في وضع المتلقي ..

–يجب على كل شخص يولد مسلما أن يخضع لله بمحض إرادته الحرة عندما يبلغ، وذلك بنطق الشهادتين، وهي الصيغة المزدوجة لإعلان الإسلام.

ثم أمرني بنطق الشهادتين : لا إله إلا الله محمد رسول الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله" (بتقة، 2024، ص 172) بعد احتكاك صادقبالأهالي والمكان واللغةوالعاطفة، اعتنقت إيزابيل/ سيدي محمود الدين بعد أن رأت في الإسلام عالما روحيا يداوي قلقها الوجودي، بعد أن صور المستعمر الدين على أنه دين عنف، وتخلف لكن " سليم بتقة" يجعل إيزابيل تتعرف على هذا الدين بنفسها لتصبح تجربتها كتابة مضادة للتمثيل الاستشراقي ليقلب بذلك علاقة التابع بالمركز ليذوب الغرب رمزيا في ثقافة الآخر ويعتنقها، مما يفكك المركزية الغربية ويعيد توزيع السلطة الثقافية.

4.4. صراع الأصوات كآلية خطابية في تفكيك الخطاب الكولونيالي.

يمثلتعدد الأصوات من أهم الظواهر السردية التي تكشف عن البنية الفكرية للنص ما بعد الكولونيالي، إذ لا يكتفي الكاتب بتقديم رؤية واحدة للعالم بل يتيح المجال لتفاعل خطابات متباينة تعبر عن ذلك الصدام بين ثقافتين / المستعمَر / المستعمِر والذي يشكل صراع رمزي على سلطة الخطاب، والمعنىفيتحول السرد بذلك إلى مساحة جدلية يعبر فيها كل صوت عن موقفه الإيديولوجيبين صوت يسعى إلى تكريس هيمنته عبر اللغة، و التمثيل، وآخر يحاول تفكيك تفكيكه واستعادة صوته، وصورته " فالخطاب ما بعد الكولونيالي هو فضاء للتمازج والتوتر حيث لا يتحدث صوت واحد باسم الهوية بل تتجادل الأصوات في إعادة تعريف الذات والآخر"(بابا، 1994، ص 2–4.) يقول بتقة في هذا السياق " بففف .. كان عليّ أن أحجز تذكرة في الدرجة الثانية، على الأقل أوفر بعض المال.. إننا نسافر في ظروف سيئة.. كل شيء في هذا البلد قذر جدا.. بلد لعين" (بتقة، 2024، ص 84.) صوت المستعمِر الذي يعكس خطابا سلبيا واستعلائيا اتجاه الجزائر ثم ما بلبث يأتي صوت مضاد يقدم وجهة نظر مغايرة تماما " محطة جميلة في قرية ساحرة، لا تزال بها آثار الربيع واضحة على أشجار النخيل والحشائش الخضراء المحيطة بها، محاطة بالدفلى .. واحة ضائعة بين تلال ذهبية ترتفع في صف مزدوج كأنها صنعة يد بشرية" (بتقة، 2024، ص 95.) ليتشكل صراع الأصوات هنا من خلال تصادم وجهات النظر داخل النص

صوت المستعمِر ⟵ صوت متعالي/ سلبي ⟵ التشكيك والانتقاص .

صوت السارد الناقل للحقيقة (إيزابيل) ⟵ إيجابي/ مقاوم ⟵ تأكيد الهوية للمكان وجماله.

الكاتب هنا إتخذ من إيزابيل صوتا استعماريا مناهضا لادعاءات بني قومها عن الجزائر وكأنه بذلك يثبت ذلك التناقض، ويفضح من جهة أخرى تزييفهم للحقائق." لقد باغتنا أولئك الهمجيون على حين غفلة ونحن قائلون، لم نكن نقاتل، كنا ندافع عن أنفسنا.. نحن لم نعد بمقدورنا أن نصدهم، لأن كل ما نشعر به في تلك اللحظة هو أن الموت يطاردنا في كل مكان. هذه هي المرة الأولى منذ أيام لم نتمكن فيها من الدفاع عن أنفسنا" (بتقة، 2024، ص 222.) يحاول الجندي تبرير هجوم الأهالي عليهم وردهم كنوع من الدفاع

عن النفس، ليضع بذلك مقاومة السكان الأصلين في خانة الإرهاب والوحشية، ثم ما تلبث تظهر الحقيقة " هل تحب الأهالي جناب العقيد؟

-نعم أحبهم أحب فيهم شجاعتهم، وبراءتهم، وحالتهم الذهنية أيضا .." (بتقة، 2024، ص 241.) وهو صراع عن المعنى

الجندي المشارك في الحدث ⟵ تزييف الحقائق ⟵ السكان يمثلون تهديد/ همج/ وحوش.

السارد الناقل للحقيقة ⟵ اظهار الحقيقة ⟵ السكان يمثلون الشجاعة والبراءة.

يظهر صراع الأصوات هنا من خلال التمثيل الرمزي للآخر فالمستعمِر يرى الآخر تهديدا، ومجرما، في حين أن الصوت المقاوم يراه إنسانا بصفاته، وسلوكه. ليمتد الصراع إلى صراع الرؤية، والتقدير، والهوية، واخفاء الحقائق " رغم الوقت القصير الذي قضيته مع الأهالي، إلا أن التقرير الذي أنجزته عن الحالة الراهنة اعتبرته فاصلا بالنسبة لعمق نظرتي ... حيث وقفت عن قرب على مأساة إنسانية صادمة، وأنا على يقين أنه سينجز تقريرا مضادا سيتغنى بفضائل فرنسا على الأهالي، وسينسف جهدي في فضح ممارسات الإدارة الفرنسية" (بتقة، 2024، ص 245.) يتمركز الصراع هنا حول السارد الناقل للحقيقة الذي يمثل الوعي الداخلي المهتم بفضح الوقائع كما. وبين الإداري الفرنسي/ الخطاب الرسمي الذي يشتغل على صياغة الحقيقة على حسب مصالحه.

السارد الناقل للحقيقة ⟵ رؤية إنسانية نقدية ⟵ التعاطف، ومحاولة كشف الحقائق.

الخطاب الرسمي ⟵ رؤية استعمارية دعائية ⟵ تزييف الوقائع/ تبرير الاستعمار بحجة الوصاية والحماية.

لم تعد الرواية ما بعد الكولونيالية مجرد ناقل للتاريخ وحسب بل تحولت إلى فضاء حواري تتقاطع فيه الرؤى والأصوات، بين مستعمِر ومستعمَر، بين صوت الهيمنة وصوت المقاومة، وبين اللغة الواصفة واللغة الكاشفة.

5.4. المكان ينتصر لهويته: من الجغرافيا المحايدة إلى الفضاء المقاوم: يتحول المكان في رواية " إيزابيل" من مجال محتَل إلى فاعل سردي ومقاوم وثقافي، يمتلك هوية يعبر عنها ويفرضها حتى على الوافد الغربي، فالصحراء الجزائرية لا تنصاع، ولا تقبل التخطيط، ولا تبوح بأسرارها ، تغدوا حارسة على هويتها فتحمل الذاكرة والتاريخ " صحيح أن عدونا الرئيسي هو الطبيعة الصحراوية، وعنف المناخ، سماء ذائبة، وشمس رهيبة تسيل الأدمغة، وتذوب الصخور، وترتجف النباتات، وتنكمش النعال وجنود الأقدام وقليل جدا من الماء، وغالبا ما يكون غير صالح للشرب. وفوق ذلك كله، هناك قبائل متوحشة، وشرسة" (بتقة، 2024، ص 240) فالصحراء هنا خصما حقيقيا للغريب، كائن حي يقاوم الغزو بقسوته وجبروته، لتتحول إلى فاعل روائي تعيد تشكيل الوجود الاستعماري الذي فشل في قولبة المكان/ الصحراء فهي لا تقبل التنظيم، ولا التخطيط إنها تقاوم، وترفض المحتل بطريقتها فتنتصر لهويتها، وتفكك خطاب السيطرة الكولونيالي عبر عناصرها.

تقر " إيزابيل" بأن في الصحراء إنسانية وروحانية لا تشبه ما يعرفونه وهو تفكيك للخطاب الكولونيالي من الداخل فالغرب لم يعد معيارا للمعنى، بل أصبح يبحث عن المعنى عند الآخر " لطالما انجذبت إلى الصحراء، والترحال، وأحلم بالعيش مع البدو للعودة إلى منابع الحياة والسفر إلى أعماق الإنسانية..

-نعم أنا أفهم، هناك شيء روحيحول هذه الأماكن، هؤلاء الناس، هذه الإبل، هذه الحيوانات الفخورة.." (بتقة، 2024، ص 122)، تعيد الصحراء ربط الإنسان بالأصل بالنقاء بالإنسانية والزمن الهادئ، وحنينا مفقودا وهوية ليست مكتملة مما انجرّ عنه سعيا للانتماء إلى شيء أكثر صدقا" فعلى قدر إحساس الإنسان بأنه مرتبط بالمكان يكون إحساسه بذاته، بل إنها تؤكد أن للمكان قوة تقود الإنسان بالضرورة إلى دروب مختلفة من المعرفة يميل إلى البحث لنفسه عن رقعة من الأرض يضرب فيها بجذوره وتتأهل فيها هويته" (حمود، 2010، ص 24.) فالانجذاب إلى الصحراء ليس انجذابا جغرافيا فحسب بل هو بحث عن الذات في مرآة الآخر " ما الذي يجذب أندرية جيد وأوسكار وايلد ... وغيرهم إلى هذا المكان البسيط ويجعلهم يترددون عليه؟ لكن سرعان ما أدركت بعد زيارات له أن المكان

يسمح للوقت أن يتلاشى وللأحلام أن تصبح حقيقة" (بتقة، 2024، ص 130) للمكان الصحراوي قدرة هائلة في تحرير الشخصية الاستعمارية من قيود الزمن، والواقع لتعيش تحررها الداخلي " نعم ستكون الصحراء منفاي، سأعيش مقل أوليسيس مع كاليبسو، أوفيد مع سارماتين، لن أفكر أبدا في العيش في موطني الأصلي في أوروبا حيث تشرق الشمس في ضوء الليل مثل مصباح وضع فوق قبر" (بتقة، 2024، ص 90-91.) فالصحراء تعطي لإيزابيل فرصة للحلم، والعيش وفق رغبتها الخاصة بعيدا عن أوروبا التي تمثل موطنا مهيمنا.

تبرز رواية إيزابيل قدرة الفضاء على أن يكون فاعلا ثقافيا، وسياسيا، فهو لا يقتصر على الخلفية الجغرافية، بل يتحول إلى أداة لمقاومة الهيمنة، وإعادة بناء الذات حيث ينصهر التاريخ، والجغرافيا، والذاكرة في فضاء موحد يمنح للشخصية القوة، والوعي اللازمين للحفاظ على الهوية.

مثلت كل هذه المحطات مستويات الهوية العميقة التي اشتغل عليها " سليم بتقة" ليمثل كل عنصر جبهة رمزية ثقافية تعاند الاستعمار وتفكك خطابه لإعادة بناء هوية من الداخل، فتبرز الرواية هنا كفضاء سردي تعطي للهامش حق التمركز، وقلب الأدوار، وبناء نص مضاد.

5.خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره وفي خضم التحولات الفكرية والنقدية التي أعقبت نهاية الحقبة الاستعمارية يمكننا الوقوف على جملة من الاستنتاجات نفردها فيما يلي:

- يمثل أدب ما بعد الكولونيالية فعلا سرديا واعيا يؤثث إلى مقاومة ثقافية تتداخل مع مفاهيم التمثيل والهوية والآخر.

-النص ما بعد الكولونيالي نص مضاد يعيد رسم صورة الأنا / المستعمَر والآخر / المستعمِر بصياغة مختلفة يعيد ترتيب المركزيات.

-الخطاب الروائي الجزائري المعاصر اشتغل على تمثيل مفاهيم ما بعد الكولونيالية من خلال مساءلة الآخر وإعادة الصياغة لتمثيلاته وهو ما يظهر جليا في إيزابيل.

-اعتبار الرواية وسيلة مهمة لتفكيك البنى الرمزية الكولونيالية، من خلال إعادة الاشتغال على الشخصية، والمكان، وبلورة الوعي لدى الشعوب المستعمَرة.

-مثلت الهوية في رواية ما بعد الكولونيالية حركة ووعيا مستمرا متواصل التواجد في فعل التمثيل، وليست ماضيا ينظر إليه نظرة حنين ووجع.

-استطاع " سليم بتقة: في رواية " إيزابيل" أن يجعل من التفاصيل اليومية كالصحراء، واللباس، والعادات نوعا من المقاومة الصامتة التي أكدت على تأصل الهوية الجزائرية من العمق.

-اشتغل " سليم بتقة" في روايته على صوتها السردي الذي أصبح مركزية فكرية، ولغوية تمارس نقدا مزدوجا للذات وللآخر من أجل تأثيث هوية متفاعلة.

-استطاعت رواية " إيزابيل" أن تجعل من " إيزابيل" نقطة تحول في تمثيل الآخر داخل الأدب الجزائري / النص المضاد من شاهدة استعمارية إلى ذات مندهشة، ثم فاعلة فمتعاطفة فمندمجة.

-مثلت الصحراء نقطة مركزية في الرواية اشتغل عليها الكاتب كقوة رمزية ترفض الاختراق، وتعيد إنتاج هوية محلية من خلال تماهي الآخر الغربي فيها نفسيا وروحيا.

-استطاعت رواية " إيزابيل" أن تمثل النص المضاد وجعل الأنا الجزائري/ المستعمَر أن يشارك ويتكلم من موقع الفاعل الحي بدل المفعول فيه.

– أما بالنسبة لمقترحات الموضوع فنجملها في الآتي:

– الاشتغال على المدار الأوسع للنص الكولونيالي والنص المضاد للوقوف على كيفية تفكيك الصور النمطية الكولونيالية والاشتغال على تمثيل جديد للسردية من منظور ما بعد الكولونيالي.

–الاشتغال على معطى المكان كحامل للهوية في النص المغاربي، وكيف استطاع المحافظة على الهوية كفضاء مقاوم رمزي.

– الاشتغالبوجه خاص على الرواية الجزائرية كخطاب مضاد من خلال جمع وتحليل المفاهيم الكولونيالية الموجودة في هذه الخطابات لفائدة الطلبة.

– تسليط الضوء على دراسة الرواية الجزائرية من خلال طريقة اشتغالها على إعادة تفكيك المركز والتمثيل الجديد من زاوية نظر الشعوب المستعمَرة من خلال مفاهيم ما بعد الكولونيالية لا الوقوف على الممارسات الاستعمارية وحسب.

قائمة المراجع والمصادر:

–الأعرج واسيني، 2010، الكتابة في لحظة عري، دار الآداب بيروت، لبنان ، د ط.

– الخربطولي محمد خضر، 17/ 11/ 2017، إشكاليات الوضع الراهن في العالم الغربي في ضوء فكر ما بعد الكولونيالية في افريقيا، المؤتمر الثالث للبحث العلمي في الأردن، الجمعية الأردنية للبحث العلمي،الأردن.

– الرويلي ميجان و البازعي سعد ، د ت، دليل الناقد الأدبي، اضاءات لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2.

– بابا ك هومي، 2012، مواقع الثقافة، تر: ثائر ديب، دار التنوير، بيروت لبنان، دط.

– بورايو عبد الحميد، 2004، الرواية الجزائرية والتحولات الاجتماعية، دار الهدى، عين ميلة الجزائر، دت.

– حمود ماجدة، 2010، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.

– سبيفاك غاياتري ، ،2010 هل يستطيع التابع أن يتكلم ، ماركسية وما بعد الكولونيالية، تر: صفاء عبد السلام، المركز القومي للترجمة، القاهرة مصر، د ت.

– سعيد إدوارد، 1995، الاستشراق، المقدمة. تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت لبنان، ط5.

– الثقافة والامبريالية، 2014، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت لبنان، ط4

– طيبون فريال، 2015 –2016، نظام الشخصية في روايات الطاهر وطار، البناء والدلالة أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.

– فوكو ميشيل، 2007، نظام الخطاب، تر: ماهر شفيق فريد، دار التنوير، بيروت لبنان،د ط.

– قادري حورية ، 2002، الخطاب الايديولوجي والتجريب، مجلة الوفاء، ع 3، ص 60-79.

– لومبا أنيا، 2007، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غيوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1.

– هفنش تيبري، 2006، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط، تر: مي عبد الكريم، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط1.

–بتقة سليم، 2024، ايزابيل، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة الجزائر، ط1.

الخطيب محمد كامل، 1981، الرواية والواقع، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1.

-مصايف محمد،1983، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب طرابلس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، لجزائر، دط. .